القسم الأول:

بداية الدولة في المدينة

الأنصار... رجال الوفاء

-حين استقبلت المدينة التاريخ-

لم يكن وصول النبي ﷺ إلى المدينة مجرد انتقال جغرافي من مدينة إلى أخرى، بل كان انتقالًا من مرحلة كاملة من تاريخ الدعوة إلى مرحلة جديدة تمامًا.

في مكة عاش المسلمون ثلاثة عشر عامًا من الصبر والمطاردة والاضطهاد. كانت الدعوة هناك فكرةً محاصرة، وجماعةً قليلة تعيش تحت ضغط القبيلة، بلا دولة تحميها ولا أرض تأويها. لكن حين اقترب الركب من يثرب، كان التاريخ يستعد ليفتح صفحة مختلفة.

كانت المدينة قد سمعت بالإسلام قبل وصول النبي ﷺ إليها. فقد جاءها مصعب بن عمير رضي الله عنه سفيرًا للدعوة بعد بيعة العقبة، فدخل الإسلام بيوت كثيرة من الأوس والخزرج. لم تكن الأرض غريبة عن الرسالة، بل كانت القلوب مهيأة لاستقبالها.

وفي صباح يومٍ انتظرته المدينة طويلًا، وقف أهلها على الطرقات ينتظرون قدوم النبي ﷺ. كانوا يخرجون كل يوم إلى أطراف المدينة، ينتظرون حتى يشتد الحر ثم يعودون، حتى جاء اليوم الذي أقبل فيه الركب.

دخل النبي ﷺ المدينة، والناس يتزاحمون حوله، كل واحد منهم يريد أن يكون النبي ضيفه. كان هذا التنافس علامة على شيء أعمق من مجرد حفاوة استقبال؛ كان إعلانًا أن المدينة كلها مستعدة لتحمل مسؤولية هذه الدعوة.

كان الأنصار – وهم أهل المدينة – يدركون أن استقبال النبي ﷺ ليس مجرد شرف اجتماعي، بل موقف سياسي وديني خطير. فقد بايعوه في العقبة على أن يحمُوه كما يحمون أبناءهم ونساءهم. وهذا يعني أنهم يعلنون استعدادهم للدخول في مواجهة مع قريش وكل من يعادي الإسلام.

قالوا له يوم البيعة:

"خذ لنفسك ولربك ما شئت".

قال:

"أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

قالوا:

"نعم".

كانت تلك البيعة تعني أن المدينة ستتحول إلى حصن للدعوة، وأن الأنصار سيكونون خط الدفاع الأول عنها.

وحين دخل النبي ﷺ المدينة، لم يكن معه جيش، بل مجموعة من المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم في مكة. كانوا غرباء بلا ممتلكات تقريبًا. ومع ذلك، استقبلهم الأنصار بقلوب مفتوحة.

فتحوا بيوتهم لهم.

تقاسموا معهم الطعام.

وأصبح المهاجر يعيش في بيت أخٍ لم يكن يعرفه قبل أشهر.

كانت هذه اللحظة بداية مجتمع جديد في التاريخ؛ مجتمع لا يقوم على النسب ولا القبيلة، بل على العقيدة.

لم يكن الأنصار ملائكة، ولم يكونوا مجتمعًا مثاليًا قبل الإسلام. كانوا قبيلتين – الأوس والخزرج – عاشت بينهم حروب طويلة، أشهرها يوم بعاث الذي أنهك المدينة قبل سنوات قليلة من الهجرة. لكن الإسلام جمع ما فرّقته السيوف.

تحولت القبيلتان المتحاربتان إلى أمة واحدة.

وصار الرجل يقف مع أخٍ لم يجمعهما نسب ولا دم، بل جمعهما الإيمان.

كان هذا التحول هو المعجزة الاجتماعية الأولى في المدينة.

لم يكن بناء الدولة يبدأ بالسيوف، بل بالقلوب.

ولو أن الأنصار استقبلوا النبي ﷺ بحفاوة عابرة دون التزام حقيقي، لما قامت للدعوة قائمة. لكنهم فهموا معنى البيعة، فصاروا شركاء في حمل الرسالة.

ولهذا أثنى القرآن عليهم ثناءً خالدًا:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩)

كان هذا الوصف القرآني شهادة تاريخية بأن الأنصار لم يكونوا مجرد مضيفين، بل كانوا شركاء في صناعة الدولة.

الرجولة هنا لم تكن في حمل السلاح فقط، بل في فتح البيت، وفي تقاسم الرغيف، وفي قبول أن تتحول المدينة الصغيرة إلى مركز مواجهة مع الجزيرة كلها.

لقد حمل الأنصار العبء منذ اللحظة الأولى.

استقبلوا الدعوة.

واحتضنوا المهاجرين.

وفتحوا المدينة لتكون عاصمة الإسلام.

ومن بين هذه البيوت التي فُتحت، سيبدأ بناء المسجد، وستُكتب أول وثيقة لتنظيم المجتمع، وستنطلق أول معركة دفاعًا عن الدولة.

لكن كل ذلك بدأ بخطوة أولى بسيطة في ظاهرها عظيمة في معناها:

مدينة فتحت قلبها للدعوة.

ورجال قالوا للنبي ﷺ:
نحن معك.

الدروس والقيم:

- ❖ استقبال الحق قد يغير مصير مدينة كاملة.
- ❖ الوفاء بالبيعة أساس بناء المجتمعات المؤمنة.
- ❖ الإيمان قادر على إنهاء صراعات تاريخية عميقة.
- ❖ المجتمعات العظيمة تُبنى بالتضحية لا بالمصالح.
- ❖ الرجولة قد تبدأ بفتح البيت قبل رفع السيف.

التوثيق المختصر:

- ○ بيعة العقبة الثانية: أخرجها ابن إسحاق في السيرة، وأوردها ابن هشام في السيرة النبوية، وابن كثير في البداية والنهاية.
- ○ وصول النبي ﷺ إلى المدينة واستقبال الأنصار: ابن هشام، السيرة النبوية؛ ابن كثير، البداية والنهاية.
- ○ قوله تعالى:
  ﴿والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم...﴾ سورة الحشر (٩).
- ○ أخبار انتشار الإسلام في المدينة على يد مصعب بن عمير: ابن هشام، السيرة؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

أبو أيوب الأنصاري

-البيت الذي احتضن النبي ﷺ-

لم يكن دخول النبي ﷺ إلى المدينة نهاية رحلة الهجرة فقط، بل كان بداية مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام كله. كانت المدينة تستعد لتصبح مركز الدولة الناشئة، لكن أول سؤال عملي واجه المسلمين يومها كان بسيطًا في ظاهره عظيمًا في معناه:

أين سينزل رسول الله ﷺ؟

حين دخل النبي ﷺ المدينة، كان الأنصار يتزاحمون حول ناقته «القصواء». كل واحد منهم يريد أن ينال شرف استضافته. كان هذا التنافس دليل محبة صادقة، لكنه في الوقت نفسه كان يمكن أن يتحول إلى سبب حساسية بين القبائل.

كان كل رجل يقول:

يا رسول الله، انزل عندنا، العدد والعدة والمنعة.

وكان آخرون يمسكون بخطام الناقة يرجون أن تتوقف عند بيوتهم.

لكن النبي ﷺ لم يرد أن يحسم الأمر بقرار بشري قد يترك أثرًا في النفوس، فقال كلمة بسيطة لكنها حكيمة:

«دعوها فإنها مأمورة».

ترك الأمر لله.

سارت الناقة بين بيوت المدينة، والناس يمشون خلفها بقلوب متعلقة بكل خطوة. كانت المدينة كلها تنتظر اللحظة التي ستبرك فيها القصواء.

مرت الناقة ببيوت كثيرة، ثم توقفت قليلًا، ثم قامت، ثم سارت خطوات أخرى حتى بركت في موضع قريب من مسجد المدينة الحالي. كان المكان أرضًا لغلامين يتيمين من بني النجار.

هناك نزل النبي ﷺ.

وكان أقرب البيوت إلى هذا الموضع بيت رجل من الأنصار اسمه خالد بن زيد، المعروف بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

أسرع أبو أيوب إلى حمل متاع النبي ﷺ إلى بيته، وكأن قلبه يخشى أن يسبقه أحد إلى هذا الشرف. وهكذا أصبح بيته أول بيت يسكنه النبي ﷺ في المدينة.

لكن المشكلة لم تنته هنا.

كان بيت أبي أيوب مكوّنًا من طابقين: علوي وسفلي.

أراد النبي ﷺ أن يسكن في الطابق السفلي، لأن الناس سيأتون إليه كثيرًا، فكان هذا أسهل للقاءاتهم. لكن أبا أيوب وزوجته شعرا بقلق شديد من أن يكونا في الطابق الأعلى

بينما رسول الله ﷺ تحتهما.

كان أبو أيوب يقول:

كيف نمشي فوق رأس رسول الله؟

لم يكن الأمر مسألة تنظيم منزل، بل مسألة توقير عظيم.

وفي ليلة من الليالي، انكسرت جرّة ماء في الطابق العلوي، فخاف أبو أيوب أن ينزل الماء على النبي ﷺ. فأخذ هو وزوجته قطعة قماش صغيرة، وجعلا يمسحان الماء بها بسرعة حتى لا يصل شيء إلى الأسفل.

لم يكن في البيت سوى قطيفة واحدة ينامان عليها، ومع ذلك فضلا أن يستخدموها لتجفيف الماء خوفًا على رسول الله ﷺ.

وفي الصباح، جاء أبو أيوب إلى النبي ﷺ وطلب منه بإلحاح أن ينتقل إلى الطابق العلوي، لأنه لا يستطيع أن يبقى فوقه. فلما رأى النبي ﷺ صدق محبته قبل ذلك.

وهكذا انتقل النبي ﷺ إلى الطابق العلوي من البيت.

بقي رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب عدة أشهر، حتى بُني المسجد النبوي، وبُنيت حجرات أمهات المؤمنين بجانبه.

لكن تلك الأشهر القليلة كانت كافية لتخلد اسم هذا الرجل في التاريخ.

لم يكن أبو أيوب قائد جيش في تلك اللحظة، ولم يكن صاحب منصب سياسي. كان رجلًا فتح بيته، فصار بيته جزءًا من تاريخ الإسلام.

والعجيب أن قصة أبي أيوب لم تنته عند هذا الحد.

فبعد سنوات طويلة من الهجرة، وبعد وفاة النبي ﷺ، بقي أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتى كبر سنه. وفي زمن الدولة الأموية خرج مع جيش المسلمين الذي توجه لفتح القسطنطينية.

كان شيخًا كبيرًا، ومع ذلك أصر أن يشارك في الجهاد.

ولما مرض هناك، أوصى الجيش وصية عجيبة.

قال لهم:

إذا متّ، فاحملوني معكم، فإذا وصلتم إلى أقرب نقطة من أسوار القسطنطينية فادفنوني هناك.

كأنه أراد أن يبقى قريبًا من ميادين الجهاد حتى بعد موته.

وهكذا دفن أبو أيوب الأنصاري عند أسوار القسطنطينية، بعيدًا عن المدينة التي استقبل فيها النبي ﷺ أول مرة.

كانت حياته دائرة كاملة من الوفاء:

بدأت بفتح البيت لرسول الله ﷺ، وانتهت بمحاولة فتح مدينة للإسلام.

الرجولة هنا لم تكن في لحظة واحدة، بل في مسيرة كاملة.

بيتٌ فتح أبوابه للرسالة، وقلبٌ بقي مفتوحًا لها حتى آخر العمر.

الدروس والقيم:

- محبة النبي ﷺ لم تكن شعارًا بل سلوكًا عمليًا عند الصحابة.
- الحكمة في القيادة قد تمنع نزاعات صغيرة قبل أن تبدأ.
- البيوت التي تُفتح للحق تتحول إلى صفحات في التاريخ.
- الوفاء للدعوة ليس لحظة عابرة بل مسيرة عمر.
- القيمة الحقيقية للإنسان تظهر في خدمته للرسالة لا في مكانته الاجتماعية.

التوثيق المختصر:

- نزول النبي ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري:
  أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، ومسلم في كتاب الهجرة.
- حديث قول النبي ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة» في قصة نزول الناقة:
  رواه الترمذي وأحمد، وذكره أهل السيرة.
- أخبار إقامة النبي ﷺ في بيت أبي أيوب:
  ابن هشام، السيرة النبوية؛ ابن كثير، البداية والنهاية.
- خروج أبي أيوب إلى غزوة القسطنطينية ووفاته هناك:
  ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

-أخوّة تجاوزت الدم والقبيلة-

لم تكن الهجرة إلى المدينة مجرد انتقال جماعة من المؤمنين من أرضٍ إلى أرض، بل كانت اقتلاعًا كاملًا من حياة سابقة. خرج المهاجرون من مكة تاركين بيوتهم وأموالهم وتجارتهم، وبعضهم خرج حتى دون أن يستطيع حمل شيء من متاعه.

تركوا خلفهم أرضًا نشأوا فيها، وذكريات طفولة، وروابط قبيلة، وكل ما يربط الإنسان بوطنه. لم يكن خروجهم رحلة اختيار، بل كان ثمنًا للإيمان.

وصل هؤلاء إلى المدينة غرباء في ظاهر الأمر؛ لا أرض لهم فيها ولا مال ولا تجارة. كان يمكن أن تتحول هذه الهجرة إلى أزمة اجتماعية واقتصادية، خصوصًا في مجتمع قبلي اعتاد أن يربط الحقوق بالانتماء العائلي.

لكن النبي ﷺ كان يدرك أن بناء الدولة لا يقوم فقط على حماية الأرض، بل على بناء المجتمع نفسه. ولذلك اتخذ خطوة فريدة في تاريخ المجتمعات.

أعلن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

جمع النبي ﷺ أصحابه، فجعل كل رجل من المهاجرين أخًا لرجل من الأنصار. لم تكن أخوّة رمزية فقط، بل كانت رابطة حقيقية تشمل المشاركة في الحياة اليومية، والمساندة الاقتصادية، والتكافل الاجتماعي.

صار الرجلان أخوين لا يجمعهما نسب ولا قبيلة، بل يجمعهما الإيمان.

كانت هذه الخطوة ثورة اجتماعية بكل معنى الكلمة.

في مجتمع كانت القبيلة فيه هي مركز الهوية، جاء الإسلام ليقول إن الرابطة الجديدة هي العقيدة.

ومن أشهر صور هذه المؤاخاة ما حدث بين عبد الرحمن بن عوف المهاجري وسعد بن الربيع الأنصاري.

كان سعد من أغنياء الأنصار، فلما آخى النبي ﷺ بينهما قال لعبد الرحمن:

"أنا أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي بيني وبينك نصفين، وانظر أي زوجتي شئت أطلقها فإذا انقضت عدتها تزوجتها".

لم يكن عرضًا شكليًا، بل عرضًا صادقًا من قلب مؤمن يريد أن يحمل العبء مع أخيه.

لكن عبد الرحمن بن عوف أجابه بكلمة تكشف معدنًا آخر من معادن الصحابة:

"بارك الله لك في مالك وأهلك، دلّني على السوق".

لم يرد أن يعيش عالة على أحد، بل أراد أن يبدأ حياته بعمله. فخرج إلى سوق

المدينة، وبدأ تجارة صغيرة، حتى أصبح بعد سنوات من كبار التجار.

هكذا التقت روحان عظيمتان: روح الإيثار وروح الاستقلال.

لم تكن المؤاخاة إذن علاقة تبعية، بل علاقة تكامل.

وقد ظهرت آثار هذه الأخوة في حياة المدينة كلها. فتح الأنصار بيوتهم للمهاجرين، وتقاسموا معهم الطعام والعمل، حتى قال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

كان هذا الإيثار علامة على تحول عميق في القلوب. لم يعد الإنسان يقيس الربح والخسارة بمعايير الدنيا وحدها، بل بمعايير الآخرة.

وقد استمرت هذه الأخوة حتى استقرت الدولة وبدأ المسلمون يبنون اقتصادهم الخاص. وبعد ذلك نزل حكم الميراث الذي أعاد الميراث إلى روابط النسب، لكن رابطة الأخوة الإيمانية بقيت قائمة في القلوب.

لقد كانت المؤاخاة واحدة من أهم الأسس التي قامت عليها دولة المدينة. لم تكن مجرد حل مؤقت لمشكلة الفقر، بل كانت إعلانًا أن المجتمع الإسلامي الجديد يقوم على التضامن لا على التنافس.

الرجولة هنا لم تكن في حمل السلاح فقط، بل في القدرة على تقاسم الحياة.

أن يفتح رجل بيته لرجل لا يعرفه من قبل.

أن يشاركه ماله وطعامه.

وأن يشعر أن خسارته ليست خسارة إذا كانت في سبيل الله.

هكذا تحولت المدينة من تجمع قبائل إلى أمة.

ولولا هذه الأخوة، لما استطاعت الدولة الناشئة أن تصمد أمام التحديات التي جاءت بعدها من بدر وأحد والخندق.

لقد صنع السيف انتصارات كثيرة في التاريخ، لكن قليلًا ما يصنع الأخوة مجتمعًا.

وفي المدينة، صنعت الأخوة دولة.

الدروس والقيم:

- ❖ الأمة لا تُبنى بالأنظمة وحدها بل بروابط القلوب.
- ❖ التكافل الاجتماعي أساس الاستقرار في المجتمعات المؤمنة.
- ❖ الإيثار علامة على نضج الإيمان في القلب.
- ❖ العمل والاستقلال قيمة موازية لقيمة التكافل.
- ❖ العقيدة قادرة على تجاوز أقوى الروابط القبلية.

التوثيق المختصر:

- مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار:
أخرجها البخاري في كتاب مناقب الأنصار، وذكرها ابن هشام في السيرة النبوية، وابن كثير في البداية والنهاية.
- قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع:
رواها البخاري في كتاب البيوع وكتاب المناقب.
- قوله تعالى:
﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ سورة الحشر (٩).
- أخبار المؤاخاة في كتب السيرة:
ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء.